

## العولمة بين طبيعة الإنسان الاجتماعية والحركية التاريخية

الأستاذ: حميد مخوخ

المدرسة العليا للأساتذة - بوزريعة

ملخص:

تعتبر العولمة مرحلة تاريخية معقدة من مراحل الجدلية التاريخية والحضارة الإنسانية، فهي تمثل واقعا موضوعيا متجها نحو تشكيل المجتمع الكوني، عن طريق جعل كل العمليات والأنشطة الإنسانية والحضارية ذات أبعاد عالمية، لذلك فهي تتأسس على مبدئين أساسيين هما : مبدأ الاعتماد المتبادل و مبدأ الاندماج، وهما نفس المبدأ اللذان تحكمنا في الطبيعة الاجتماعية والحضارية للإنسان منذ فجر التاريخ البشري. وفي هذا السياق تتجلى الجذور التاريخية الطبيعية والأنثروبولوجية للعولمة، وهي من هذا المنطلق لا تعبر سوى عن اتساع وحدة الطبيعة الاجتماعية والحضارية للإنسان عن طريق تقوية مبدأ الاعتماد المتبادل و مبدأ الاندماج، على مستوى عالمي.

### Résumé :

La mondialisation est l'une des phase la plus complexe du processus dialectique de l'histoire et de la civilisation humaine, elle représente une réalité objective amenée à la formation de la société globale en faisant de toutes les opérations et les activités humaines et civilisationnelles une démentions universelle, c'est pour cela qu'elle se base sur deux principes fondamentaux : le principe de l'interdépendance et le principe de l'intégration, et ce sont les mêmes principes qui ont gérés la nature sociale de l'homme et l'ont conduits vers la formation de la société humaine, et l'établissement de sa civilisation depuis le début de l'histoire. C'est dans ce contexte qu'ont découvres ces racines historiques naturelles et anthropologiques.

Ainsi, la mondialisation exprime l'extension et la fusion de cette nature sociale et civilisationnelle de l'homme, à travers le renforcement du principe de l'interdépendance et le principe de l'intégration au niveau universel.

## تمهيد

غالبا ما يتناول الباحثون إشكالية العولمة كواقع موضوعي راهن، تناولا تحليليا نقديا، خاصة عندما يكون هؤلاء الباحثين من العالم الثالث، فيناقشون نتائجها السلبية و الإيجابية، و يربطونها بالهيمنة الثقافية الغربية، و تحكم القوى الاقتصادية العالمية في مصادر الثروة و التجارة العالمية، و النظام العالمي، مع أن الخوض في هذا الاتجاه أصبح لا يطرح أية إشكالية موضوعية و حقيقية، بل يمكن أن نقول أنه موضوع قد تجاوزته الأحداث، و أنه من الأجدر أن نبحث عن طرق التكيف مع هذا الواقع الموضوعي الراهن الذي هو العولمة، بأن نكون فاعلين وليس منفعلين.

إن البدهة العامة تبين أن أي موضوع سواء أكان متعلقا بالجانب المادي للحياة الإنسانية أو متعلق بالجانب المعنوي الفكري و المعرفي، إلا و له إيجابيات كما له سلبيات، و هو موضوع في الحقيقة يخضع لأخلاقيات التوظيف و التعامل، فالإنسان هو الذي يضفى على أي موضوع الطابع السلبي أو الإيجابي حسب زاوية استخدامه. و العولمة كنتيجة للحركة التاريخية يمكن توظيف نتائجها إما سلبيا أو إيجابيا. غير أن الإشكالية التي كان ينبغي أن تطرح للنقاش هي طبيعة العولمة و علاقتها بالإنسان و وجوده، على أساس أن هذا الأخير هو نقطة المركز الذي تدور حوله الأحداث و يجرفه تيار التاريخ، و من ثم فلما كانت العولمة في أعم معانها تعني الانتقال من المجال المحلي و الإقليمي إلى المجال العالمي، فهي ملازمة لكل ما يؤدي إلى التوسع و الشمول و العالمية أي التعاون و التجانس بين المجتمعات البشرية من أجل بلوغ هذا الاتساع و الشمولية و العالمية، ولهذا يجد المجتمع أو الدولة نفسها مندمجة في تيار العولمة تلقائيا، إما كعنصر فاعل أو كعنصر منفعل في التاريخ، و لا سبيل إلى الخروج عن مسار هذا التيار، و هذا يعني أن العولمة هي نتيجة للحركة التاريخية التي هي حركية طبيعية حية تتحكم فيها القوانين الجدلية التاريخية، و خارجة عن إرادة الإنسان و المجتمعات و الدول بل هذه الأخيرة هي من عناصر هذه الحركية.

و الاجتماع البشري في جوهره أيضا هو نتيجة طبيعة جدلية لعلاقة الإنسان بالطبيعة المادية، و بنفسه، و الآخرين من أفراد البشر، لذلك نجده يتقاطع مع النزوع إلى التوسع و الشمولية و العالمية في نفس الآليات التي تحرك التاريخ نحو

العملة الحالية، و ذلك من خلال تأسيس الاجتماع تأسيسا تلقائيا طبيعيا جدليا خارج عن إرادة الأفراد البشرية، وهو اجتماع ينزع دائما إلى التوسع والشمولية بقدر الإمكان، لأن الإنسان كونه أضعف الكائنات الحية في مواجهة الطبيعة المادية القاسية، فهو في الوقت نفسه أقوى الكائنات الحية لما يتمتع به من ذكاء و وعي بضرورة الاجتماع مع غيره من أفراد البشر. وكما كان هذا الاجتماع أوسع وأشمل كان أقوى و أضمن لحياة الإنسان و استقراره، و حتى يبلغ هذا المستوى من القوة و ضمان الاستقرار على الإنسان كعضو في مجتمع و على المجتمع أو الدولة كعضو في المجتمع الدولي و النظام العالمي، أن يعزز مبدأ التعاون الذي يتجلى في مبدأ الاندماج و مبدأ الاعتماد المتبادل، و هما المبدأان اللذان قام عليهما نشوء الاجتماع البشري و المجتمع الدولي المعاصرو ويتجلى ذلك في ميمما يعرف بالعملة.

### 1- في طبيعة الاجتماع البشري

لم تتوصل أية دراسة علمية أو تاريخية أو أنثربولوجية إلى معرفة تمام المعرفة البدايات الأولى لقيام الحضارة البشرية و الاجتماع البشري، و إنما جل الدراسات في هذا الميدان دراسات تخمينية قائمة على ما خلفته هذه الحضارة و هذا الاجتماع من آثار و حفريات الإنسان، لذلك يرى المؤرخ الإنجليزي أرنولد توينبي أن التأريخ لظهور الجنس البشري في المحيط الحيوي، و ما أنجزه من عناصر الحضارة التي تعبر عن وجوده، مرتبط ببقطة الوعي الإنساني، و لكن تاريخ هذا الوعي يستنتج فقط من البقايا المادية التي خلفها الإنسان، كالأدوات و المصنوعات الحجرية و الفخارية و بقايا العظام، التي عثر عليها الباحثون في مختلف مناطق العالم و ذلك على سبيل التخمين.<sup>(1)</sup>

و على هذا الأساس يمكن أن نخمن أن تاريخ ظهور الجنس البشري و بقطة وعي الإنسان و قيام الحضارة، قد بدأ بكون الإنسان يعيش في مجتمع و في مسكن محدد، فالإنسان كائن ضعيف عندما يكون خارج الجماعة و معرض لأخطار لا يستطيع مقاومتها لوحده، و أنه لا يستطيع تحصيل حاجاته الضرورية للبقاء بمجهوده الفردي، لذلك قال ابن خلدون: " أن الاجتماع البشري ضروري و يعبر

<sup>1</sup> - أرنولد توينبي، تاريخ البشرية، الجزء الأول ترجمة: نقولا زيادة، الأهلية للنشر و التوزيع، ط 1،

الحكماء عن هذا بقولهم الإنسان مدني بالطبع أي لابد له من الاجتماع الذي هو المدنية في اصطلاحهم وهو معنى العمران.<sup>(1)</sup>

و هذا يعني حسب ابن خلدون أن الله عز جل خلق الإنسان وركبه بشكل لا يضمن بقاؤه و يصون حياته إلا بالغذاء، و هو غير قادر على تحصيله بمجهوده الفردي، ، و هو ما يفرض الاجتماع، و أن الله أراد من خلال ذلك تحقيق استخلاف الإنسان في الأرض و هو ما قصده ابن خلدون بالعمران.<sup>(2)</sup>

و قد كتب الدكتور " جين مارك غاسبار إيتارد Jean Marc Gaspard Itard " قائلاً:  
 " يأتي الإنسان إلى الكرة الأرضية بدون قوة جسدية و بدون أفكار تولد معه، و غير قادر بذاته على متابعة قوانين طبيعته الأساسية التي ترفعه إلى قمة المملكة الحيوانية.. و من ثم فيما يرى " إميل دوركهايم Emile DURKHEIME " أن ما يعتقده كل فرد بأن له حقوقاً طبيعية مقدسة تلازم طبيعته الإنسانية لاسيما الحقوق و الحريات الفردية، هي في الحقيقة أمور خلعها المجتمع عليه، و هو الذي خصه بهذا الاعتبار القدسي، و جعل منه كائناً ذا قدر رفيع أهلاً للتوقير و الاحترام، لأن إذا ما حللنا أي فرد على ما هو عليه فلن نجد في الواقع أي شيء من هذه الحقوق المقدسة.<sup>(3)</sup>

و هذه السلطة التي يتمتع بها المجتمع على الفرد، هي في الحقيقة سلطة معنوية قائمة في شعور الفرد و ضميره الخلقي، و هو شعور مشترك بين الأفراد و أعلى و أنقى من كل شعور شخصي. و بهذه السلطة فيما يرى " إ. دوركهايم E.DUKHEIM " يقوم

<sup>1</sup> - عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، الجزء الأول من كتاب العبر، ضبط المتن: خليل شحاتة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، د.ط، 2000، ص 54.

<sup>2</sup> - المرجع نفسه ص ص 54 – 55

\* - جين مارك غاسبار إيتارد Jean Marc Gaspard Itard ( 1774 – 1838 ) طبيب فرنسي مختص في أمراض الصم و البكم و التربية المختصة، نال شهرة كبيرة بأعماله حول الطفل المتوحش المعروف بـ " فيكتور دولا فيرون Victor de l'Aveyron " كما أنه يعتبر المؤسس الأول للمدرسة الفرنسية المختصة في علم الصم، و التحليل النفسي للطفل، و أيضاً كان عضو الأكاديمية الفرنسية للعلوم ( موسوعة Wikipédia bibliographie )

<sup>3</sup> - إميل دوركهايم، علم الاجتماع و الفلسفة، ترجمة: د/ حسن أنيس، مكتبة الأنجلومصرية- القاهرة، ط 1 ، 1966، ص 127.

المجتمع بتكوين مقوماتنا الفكرية التي تتألف منها حضارتنا، إذ نتلقى منه كل ما هو أساسي لحياتنا الفكرية، و الذهنية، و عقلنا الفردي، مثله مثل عقلنا الجمعي اللاشخصي، و كذلك الأمر فيما يخص ممتلكاتنا الجمالية، و رفاهة ذوقنا، و كل ما يتعلق بالفن، و كل ما نملكه من سلطان على الطبيعة، أي كل ما يشكل وعينا الإيديولوجي المشترك. فالمجتمع هو الذي حررنا من الطبيعة، إننا بذلك ندين للمجتمع بكل التضحيات و الطاعات و الاحترام و القداسة. "إننا - كما يقول " إ. دوركايم E. DURKHEIM - لنرى المؤمن يخضع لله لأنه إلى الله فيما يعتقد ترجع الأمور، فهو الذي وطأ له سبيل الوجود، و هو الذي يبرأ الروح، و يهب العقل و التفكير، و نحن بالمثل نمارس هذه العاطفة نفسها نحو المجتمع، بل و لمثل هذه الأسباب عنها." (1)

نستنتج من خلال هذا العرض أن الإنسان كائن اجتماعي بطبيعته، و هذا يعني أنه مضطرب إلى أن يعيش في علاقات مع غيره من أفراد المجتمع

## 2- استقرار الاجتماع البشري

لما كانت العولمة الراهنة مرتبطة أشد الارتباط بما أنتجته الحضارة البشرية إلى يومنا هذا، فإن هذا الانتاج الحضاري البشري لم يكن من الممكن أن يبرز إلى الوجود، لولا لجوء الانسان إلى الاجتماع في مجموعات بشرية مترابطة ترابطا وظيفيا، بدءا من نشوء الأسرة. بيد أن المجتمع البشري ما دام قد تأسس على مبدأ التآنس، فهذا المبدأ كان يفرض على أفراد المجتمع أن يقوم كل واحد بدور اجتماعي محدد، و هذا يعني أنه كان هناك اعتماد متبادل بين أفراد المجتمع الواحد، كما هو معروف اليوم بين الدول في عالم العولمة. و مبدأ الاعتماد المتبادل (L'interdépendance) في جوهره قائم على أساس اقتصادي، إذ يكون الفرد ملزما في إطار دوره الاجتماعي، أن يقدم شيئا للمجتمع أي إنتاجا اقتصاديا، و إلا يوضع على الهامش، و على هذا الأساس نشأ " مبدأ التبادل الحر Le principe de libre échange"، و هو المبدأ المحرك لعملية الانتاج و الاستهلاك، مما يعني أن الاجتماع البشري في جوهره مؤسسة اقتصادية بداية من الأسرة باعتبارها نواة المجتمع.

<sup>1</sup> - إ. دوركايم علم الاجتماع و الفلسفة، ص ص 129 - 130.

و في هذا السياق نكتشف في السجل التاريخي للمجتمعات الانسانية، أن مجتمعات الصيد و الجمع كانت تقسم الأدوار الاجتماعية بين الرجال و النساء تقسيما اقتصاديا بالدرجة الأولى، و لم يكن هناك زواج و لا عائلة بالمعنى الحرفي للكلمة، لأن الناس كانوا ينتقلون من مكان إلى آخر بحثا عن الصيد و جمع الحبوب، و الجذور الغذائية و الفواكه، و لم يكن لهم علم بأن العلاقات الجنسية هي سبب التناسل، بل كان ذلك بقصد المتعة الجنسية فقط<sup>(1)</sup>.

و في اعتقاد " بيتر فارب " أن التكيف مع حياة الصيد و الجمع كان ينجح بالحفاظ على العلاقات الجنسية بين الذكور و الإناث لأطول مدة زمنية ممكنة، مما يجعل من الضروري حدوث رابطة زوجية لفترة طويلة نسبيا، على أساس التكامل الاقتصادي بين الرجال و النساء، إذ يقوم الرجال بمهمة الصيد و تقوم النساء بمهمة جمع الحبوب و الثمار البرية، فالعامل الاقتصادي هو المحرك لتاريخ الشعوب و هو أساس اندماجها كما هو معروف اليوم في عالم العولمة.

و من ثم فإن بداية استقرار المجتمعات البشرية كان مرتبط ببناء سكنات، ومخابئ لحفظ المنتجات من الحبوب البرية، التي كان الجامعون يحصلون عليها زيادة عن حاجاتهم الحاضرة، كون هذه الحبوب و البذور و الثمار البرية، لم تكن متوفرة على طول السنة، أو تتعرض للإتلاف بسبب الظروف المناخية القاسية، ومن جهة أخرى فهي تشكل غذاءها الرئيسي طيلة أيام السنة كما في بعض قبائل أستراليا و أمريكا، ولهذا كان يطلق عليهم اسم " شعوب الجني " لأنها كانت تجني محصولها من الحبوب و الثمار و الجذور البرية دون أن تغرسها أو تزرعها، ولهذا فهي متحررة من خاصية الشعوب المتنقلة مثل مجتمعات الصيد و الجمع، ولكنها لم تتطور إلى مستوى الشعوب الزراعية و الرعاة المستقرة، مع أنها كانت شعوب شديدة الاهتمام بأمنها الاقتصادي في المستقبل، مما جعلها تبني مخابئها و مخازنها و سكناتها قرب الحقول التي تمدّها بهذه المنتجات البرية، كما ساعدها ذلك على ابتكار نوع من الحياة الجماعية يتقارب فيها الناس بعضهم ببعض، فكان بناء بيوت يعقد الناس فيها مجالسهم، و أماكن للتسلية، و سماع الموسيقى و رواية

<sup>1</sup> - سلامة موسى، نظرية التطور و أصل الإنسان، كلمات عربية للترجمة و النشر- القاهرة، ط1،

القصص<sup>(1)</sup>، و يذكر " إيان تاترسول I.Tattersall. أن علماء الآثار قد امتشقوا في منطقة الهلال الخصيب قرى كبيرة لاسيما في موقع " أبو هريرة"، وهي قرى تتضمن عدة منازل طينية متقاربة ذات غرف عديدة، و مجهزة بوسائل الراحة المتخصصة مثل الأفران و المواقد، كما كانت تلك القرى أحيانا محاطة بجدران مزينة و تماثيل مثل تلك التي اكتشفت في موقع " كاتال هويوك Catal Hüyük بتركيا ربما هي جدران دفاعية بسبب وجود نوع من العنف بين المجتمعات،<sup>(2)</sup> و قد مهد ذلك الطريق إلى نشوء المجتمع المستقر على حياة الزراعة و الرعي و تربية الحيوانات العاشبة، كما فسحت هذه الابتكارات امكانية قيام التمدن و الحضارة.

لقد كان على الإنسان في تلك الفترة أن يواجه تقلبات مناخية قاسية لاسيما منطقة الهلال الخصيب، إذ يبدو أن الشعوب التي قدمت إلى هذه المنطقة الواسعة التي تعتمد في معيشتها على جمع الحبوب البرية، وجدت نفسها في مواجهة فصول صيفية أطول، و حرارة شديدة و جفاف متزايد، و هو ما أدى إلى انخفاض الإنتاج الطبيعي لهذه الحبوب البرية، و للتعويض عن ذلك بدأت شعوب هذه المنطقة أي منطقة الهلال الخصيب في عملية الزراعة و انتاج الغذاء، فقد قام سكانها بزراعة بذور أنواع مختلفة من الحبوب البرية كالقمح الوحيد الحبة و الحنطة النشوية وغيرها من الحبوب، و قد حافظت تلك الشعوب على بذورها بشكل فعال، كذلك قام المزارعون الأوائل بتطبيق مستوى آخر من انتقاء الحبوب، و ذلك عن طريق زراعة أنواع الحبوب الأكثر قوة و إنتاجية من أنواعهم المفضلة، و ربما كان ذلك رغبة منهم في إضافة نوع جديد من أنواع الحبوب<sup>(3)</sup>، لكن ذلك كان سببا من أسباب تقارب الناس و استقرارهم اجتماعيا و اقتصاديا.

لقد تمكن الإنسان في تلك العصور الأولى من تأسيس الحضارة على أساس التكيف مع البيئة المحلية، و أدرك العوامل المساعدة على تطوير الزراعة، و تربية أنواعا من الحيوانات العاشبة، و بذلك فقد أضاف سكان الهلال الخصيب إلى

<sup>1</sup> - يوليوس ليبس، أصل الأشياء ( بدايات الثقافة الإنسانية )، ترجمة: كامل اسماعيل، دارالمدى

للثقافة و النشر - دمشق، ط1 1988، ص ص 14 - 15

<sup>2</sup> - إيان تاترسول، العالم من البدايات حتى 4000 قبل الميلاد، ص 190.

<sup>3</sup> - إيان تاترسول، العالم من البدايات حتى 4000 قبل الميلاد ، ص 179.

محصولهم من الحبوب القمح والشعير ومختلف البقول كالعدس والحمص، وقد دلت بعض الآثار التي اكتشفت في الثمانينات من القرن العشرين في منطقة " أريحا ( Jericho ) في وادي الأردن، أن سكان الهلال الخصيب تمكنوا من جمع تشكيلة واسعة من الموارد من البيئة المحلية، تتمثل في أكثر من خمسين نوعا من المكسرات والفواكه والنباتات الأخرى. وفي المناطق الأخرى من العالم نكتشف أن الأرز كان يزرع في الصين والذرة البيضاء في إفريقيا، وفي القارة الأمريكية فقد تم اكتشاف أن زراعة القمح واليقطين كان في الإكوادور والميكسيك، وزراعة الفاصولياء والذرة في أمريكا الوسطى.<sup>(1)</sup>

إن تطور الزراعة في مناطق مختلفة من العالم ساعد على تربية الحيوانات والرعي من جراء حدوث استقرار المجتمعات في مناطق محددة، والقدرة على التكيف مع مناخها وتضاريسها، ومن المحتمل أن يكن الكلب أول حيوان قام الإنسان بترويضه عندما كان في مرحلة الصيد والجمع، كما كان تدجين الماعز والأغنام في منطقة الهلال الخصيب، وكذلك الخنازير، وفي إفريقيا كانت هناك تربية البقر. والاهتمام بتربية الحيوانات في الحقيقة كانت له فوائد كثيرة، فبالإضافة إلى كونها مصدرا للغذاء من اللحوم والألبان، فهي أيضا تقدم المادة الأولية لصناعة الألبسة من الصوف أو الوبر والجلود، وكذلك في تعويض الإنسان في أداء الأعمال الشاقة، والتنقل من منطقة إلى أخرى، وحمل أغراضه الثقيلة. ومنذ حوالي خمسة آلاف سنة إلى سبعة آلاف سنة انتشرت مختلف أساليب الزراعة لأنواع مختلفة من المحاصيل في جميع مناطق العالم المسكونة، ومن ثم اضمحلال نمط حياة الصيد والجمع.<sup>(2)</sup>

لقد جعلت الابتكارات البشرية في الزراعة وتربية الحيوانات، امكانية وضع قواعد اقتصادية قوية، كونهما يمثلان جوهر استقرار المجتمعات البشرية من جهة، وأساس عملية التبادل ( المقايضة التي تطورت إلى العملية التجارية فيما بعد ) من جهة أخرى، سواء أكان ذلك بين الأفراد في سوق محلية، أو بين المجتمعات في سوق

<sup>1</sup> - المرجع نفسه، ص ص 180 – 181.

<sup>2</sup> - المرجع نفسه، ص ص 182.

إقليمية، في إطار عملية الإنتاج والاستهلاك. وعملية التبادل الاقتصادي هذه هي من الأسس الجوهرية التي تقوم عليها العولمة الحالية في مظهرها الاقتصادي والتجاري. كذلك فإن تطور الزراعة وتربية الحيوانات قد أدى إلى انتقال المجتمع البشري من البساطة إلى التعقيد، مما سمح بظهور التمدن، و من ثم تأسيس الحضارة، وتعزيز قنوات الاتصال بين الشعوب وتبادل أنماط ثقافية مختلفة، وهو من بين العوامل الأساسية التي ساعدت على تقارب الشعوب كما هو الحال في عصر العولمة. لذلك يكشف لنا السجل الآثاري أن أشكال استقرار الحياة القائمة على الزراعة، قد بدأت تمتد من منطقة الهلال الخصيب إلى أوروبا قبل حوالي سبعة آلاف وثمانمائة سنة عن طريق الاتصالات التجارية.<sup>(1)</sup>

### 3- مبدأ الاندماج ومبدأ الاعتماد المتبادل

إن فهم ديناميكية العولمة يتطلب تناول هذا الموضوع في جذوره التاريخية العميقة في تاريخ الاجتماع البشري والحضارة البشرية، كون المجتمع الدولي الذي تشكل اليوم تحت ديناميكية العولمة يكون قد تأسس على نفس القواعد والأسس والركائز التي تأسس عليها الاجتماع البشري والحضارة البشرية منذ أقدم العصور، ولأسيما مبدأي الاندماج الاجتماعي Le principe de l'intégration sociale و مبدأ الاعتماد المتبادل Le principe de l'interdépendance ، وهما المبدآن اللذان تطورا واتسع نطاقهما ليصبحا مبدأ عالميان تأسس عليهما نظام العولمة الحالية.

فبعدما كانا مبدأ يتحكمان في العلاقات الاجتماعية بين الأفراد في المجتمع الواحد على النطاق المحلي، أصبحا في نظام العولمة مبدأ يتحكمان في العلاقات الدولية بين الدول في العالم الواحد. وهذا يعني أن الفرد إذا كان لا يستطيع مواجهة الطبيعة، ولا يحقق حاجاته إلا إذا كان مندمجا في جماعة اجتماعية، ويعتمد في بقاءه على غيره من أفراد المجتمع، فكذلك الدول فهي لا تستطيع مواجهة المصادر الجديدة التي تهدد أمنها واستقرارها، ولا تحقق حاجاتها لبقائها واستمرارها، إلا في إطار الاندماج العالمي، وفق اعتمادها على بعضها البعض، على جميع الأصعدة وفي جميع المجالات، وهي ما توضحه استراتيجية التكتل الإقليمي والعالمي.

<sup>1</sup> - إيان تاتيرسول، العالم من البدايات حتى 4000 قبل الميلاد، ص 192.

و مبدأ الاندماج الاجتماعي في أوسع معانيه يعني تداخل العلاقات الاجتماعية إلى مستوى تأسيس مجتمع متجانس، و جعله مؤسسة لا يستطيع الإنسان أن يعيش خارجها، و في هذه الحالة يجد الإنسان نفسه في وضع يشارك فيه غيره كل ما يتعلق بالحفاظ على هذا المجتمع، مما يعزز اعتماد الناس على بعضهم البعض في تحقيق حاجاتهم، و الدفاع عن أنفسهم، و هو ما يجعل الناس يفقدون شيئا من حرياتهم. ففي الاندماج الاجتماعي يتكامل أفراد المجتمع الواحد من حيث الوظائف التي يؤديونها لبعضهم البعض، مثلهم في ذلك مثل تكامل وظائف أعضاء الجسم السليم.<sup>(1)</sup> و في إطار العولة يرتقي هذا المبدأ ليشمل الدول باعتبارها أعضاء متداخلة العلاقات السياسية، و الاقتصادية و الأمنية و الثقافية، إلى مستوى تأسيس مجتمع دولي متجانس المصالح، كمؤسس دولية لا يستطيع أية دولة أن توجد خارجه، و هو ما يعزز اعتماد الدول على بعضها البعض، لتحقيق حاجاتها، والدفاع عن نفسها، و الحفاظ على هذه المؤسسة الدولية، و في هذه الحالة تفقد الدول شيئا من سيادتها التقليدية لصالح سلطة المجتمع الدولي.

و هكذا فإذا كان المجتمع سلطة معنوية محلية محدودة إقليميا و ثقافيا، متعالية عن الأفراد لكنها كامنة في شعورهم المشترك، فإن العولة أيضا هي سلطة معنوية ذات أبعاد عالمية و الدول أفرادها، و هي كامنة لاشعوريا في سياسات كل الدول، و في نظمها الداخلية، و ثقافتها و نمط معيشتها، و في علاقاتها الداخلية و الخارجية، هي نتيجة لتراكمات تاريخية إنسانية بدأت بذورها الأولى مع بداية الاجتماع البشري و الحضارة البشرية.

و من ثم فإن تناول العولة و فهم ديناميكيتها، مرتبط بتناول و فهم ديناميكية الحضارة البشرية و طبيعة الاجتماع البشري، في سياق مبدأ التطور و الارتقاء، الذي تحكم في هذه الديناميكية التاريخية، و كذا مدى تأثير مجموع العوامل البيئية الجغرافية، و الثقافية، و الاقتصادية، و الاجتماعية في هذه الديناميكية.

<sup>1</sup> - د/ خليفة عبد القادر؛ فاطمة سالي، المقال: دور المؤسسة التربوية في إدماج الفرد في المجتمع، مجلة العلوم الإنسانية و الاجتماعية، العدد 15، جوان 2014، ص 3.

( الموقع الإلكتروني: <https://dspace.univ-ouargla.dz/jspui/bitstream/123456789/6564/1/s1501.pdf> )

كما أنه من المستحيل أن يفهم الإنسان تاريخه الطويل و حضارته العريقة في القدم، فيما يرى العالم الأنثروبولوجي الإفريقي " إيان تاتيرسول Ian Tattersall"، دون أن يفهم شيئاً عن عملية التطور و التحول و الارتقاء، التي من خلالها أصبح الجنس البشري على ما هو عليه اليوم، مجتمعاً في دول و مجتمعات مع أن معظم الناس لا يملكون فكرة واضحة عن عملية التطور و الارتقاء، فهم لا يدركون منها سوى جانبها المحصور في التقدم الحضاري البشري، أو الجانب البيولوجي الجسماني، بينما قلة قليلة منهم يعرفون أن هناك العديد من العوامل، قد تشاركت على نحو نموذجي في بلورة التواريخ التطورية للجنس البشري، وهو ما أدى إلى تنوع المجتمعات في العالم،<sup>(1)</sup> و اختلاف الحضارات عبر التاريخ، و الذي أدى إلى ما نعيشه اليوم من التنوع الثقافي و الحضاري في العالم.

و ما نلاحظه اليوم في عالم العولمة أن هناك اندماج واسع النطاق بين المجتمعات، و التناقص التدريجي للخصائص الثقافية و الاجتماعية المحلية المميزة للمجتمع، و ذلك بارز بوضوح في الانتشار الواسع للنماذج الثقافية العالمية المعولمة، و هيمنة ثقافة الاستهلاك، لاسيما في المأكولات و الألبسة و مجالات الترفيه، فهناك الموسيقى العالمية و السينما العالمية و الأدب العالمي و الرقص العالمي، و الرياضة العالمية، إلى غير ذلك مما هو عالمي، و في الوقت نفسه نلاحظ ضعف الاهتمام بكل ما هو خصوصي خاصة في العالم المتقدم، و هي عملية تتسارع نتيجة لازدياد قدرة الناس على التنقل و الحركة عبر الحدود الإقليمية للدول، و كذا التواصل عن بعد بسبب تطور تكنولوجية وسائل الاتصال و الإعلام و اتساع شبكة المعلومات العالمية عبر الأنترنت.

و النتيجة من كل ذلك أن أية محاولة لتصنيف المجتمعات البشرية على أسس اجتماعية أو ثقافية أو عرقية، هي محاولة فاشلة و لا جدوى منها، لأن الاختلافات المحلية بين أفراد النوع البشري لا تستمر بحكم طبيعتها (أي طبيعتها الاجتماعية المشتركة)، و من ثم فمن غير الممكن تصنيفها فعلياً.

أما ما يتميز به عصر العولمة من انتقال الطبقة الاجتماعية و الاقتصادية من المستوى المحلي إلى المستوى العالمي، و التي تتجلى في وجود قوى اقتصادية عالمية

<sup>1</sup> - إيان تاتيرسول، العالم من البدايات حتى 4000 قبل الميلاد، ص 11.

مهيمنة على النظام العالمي، سواء أكانت في شكل شركات عالمية عملاقة متعددة الجنسيات أو كدول صناعية عظمى تتحكم في القرارات المصيرية الدولية، فهو أمر نبحت عنه في تاريخ الاجتماع البشري، لمعرفة كيفية ظهور الطبقة الاقتصادية والاجتماعية في المجتمعات البشرية عبر الزمان والمكان، وهو أمر يثير اهتماما كبيرا للكشف عن جذور العولمة في تلك المراحل الغابرة في التاريخ البشري.

ان اتجاه المجتمعات الزراعية نحو التعقيد في التنظيم الاجتماعي والاقتصادي، يعني الاتجاه نحو تشكيل مجتمع طبقي، حيث لا يصل كل الأفراد إلى نفس المستوى من السلطة والثروة، مما يفتح مجالا لوراثة المراكز الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في المجتمع، والمنافسة من أجل الحصول عليها سواء بطرق شرعية أو بطرق غير شرعية.<sup>(1)</sup>

ربما كانت المرحلة الزراعية في البداية تهدف الانتقال من مرحلة الجمع إلى مرحلة الانتاج، والتعويض عن النقص في الحصول على ما يكفي من الحبوب البرية لضمان المعيشة، لكن فيما بعد أصبح ذلك يشكل القاعدة الأساسية في استقرار المجتمع والارتباط بالأرض، بل تقديسها إلى درجة اعتبارها إلهة للخصب والنماء، فتعبد لها الإنسان وصورها في تماثيل على هيئة آدمية وهي امرأة في غالب الأحيان أو في هيئة حمامة<sup>(2)</sup>.

لكن من جهة أخرى كان ذلك بداية ظهور الملكية الفردية وهي نتيجة لجهد العمل، ومن الضروري حماية هذه الملكية والدفاع عنها كحق طبيعي، وهو الحق الذي ينادي به المذهب الاقتصادي الليبرالي المعاصر، و يطالب الدولة بضرورة حمايته، وعلى أساس ذلك قام النظام الاقتصادي العالمي الجديد، الذي هو المحرك الرئيسي للعولمة.

لذلك يرى المفكر الأمريكي " وول ديورانت " أن الملكية الفردية ليست من فطرة الإنسان، بل نشأت مع استقرار المجتمع الزراعي ونشوء المدنية. ففي المراحل الأولى من نشوء المجتمع الزراعي وبداية التطور الاقتصادي لم تكن الملكية الفردية

<sup>1</sup> - إيان تاترسول، العالم من البدايات حتى 4000 قبل الميلاد، ص 193.

<sup>2</sup> - محمد أبو المحاسن عصفور، معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم ( من أقدم العصور إلى مجئ الإسكندر)، مطبعة المصرية، دون ط، 1968، ص ص 21 - 22

معروفة سوى ما كان يستخدمه الفرد لشخصه الخاص، وهي الأشياء التي كانت تدفن معه أثناء وفاته، ولم يكن هناك نظام للتوريث، أما غير ذلك فكان كل شيء مشاع بين الناس وخاصة الأرض، فهي ملك للمجتمع ككل، ولم تكن قابلة للبيع أو للتوريث، فهي كالماء والهواء، ولهذا كان استغلالها استغلالا جماعيا.<sup>(1)</sup>

وقد لاحظ "بيتر فارب" أن في مجتمعات الصيد و الجمع كان من يملك طعاما يقسمه مع من لا يملكه وهو أسلوب في الحياة يعتمد على المشاركة، إذ يقضي هذا الأسلوب على من جمع ثمارا أو اصطاد صيدا أن يشرك بقية الجماعة صيده أو ثماره، ويكون بذلك قد كسب حقه في أن يشرك الآخرين صيدهم و ثمارهم إذا لم يسعفه الحظ في الصيد و جمع الثمار<sup>(2)</sup>. كما رأى المفكر الأمريكي "وول دورانت" في أبحاثه أنه كان من المؤلفين في تلك المجتمعات أن تستعين الجماعات التي ينزل بها القحط بجيرانها من الجماعات التي تملك الطعام، والجائع من الهنود ما عليه سوى أن يسأل حتى يستجاب له بالطعام ولو كان قليلا لدى المعطي، وكانت العادة عند قبائل "الهوتنتوت" في جنوب إفريقيا أن يقسم من يملك أكثر من غيره من الطعام، هذه الزيادة على غيره، وكذلك سكان الأسكيمو فهم لا يرون للصائد حقا شخصيا في صيده بل يلزم عليه توزيعه على الآخرين من سكان قريته.<sup>(3)</sup>

غير أن - كما يرى "وول دورانت" - هذه الحياة التي تعتمد على المشاركة في الطعام كثيرا ما تؤدي إلى الكسل و الاتكال على من لديهم قدرات أكثر من غيرهم، وتقضي على التنافس الناجح بين الأفراد أو بين المجتمعات، ولا تحفز الناس على الاختراع و الابتكار وهذه المساواة بين من ينتج و من لا ينتج تؤدي إلى تراجع الإنتاج و يبقى المجتمع فقيرا.<sup>(4)</sup>

لذلك فمع استقرار المجتمع و اكتشاف الزراعة و تربية الحيوانات و تطورت المدنية بدأت تبرز الملكية الفردية و أخذ الناس يتجهون إلى احتكار الأراضي الصالحة

<sup>1</sup> - وول ديورانت، قصة الحضارة ( المجلد1، ج1)، تقديم محي الدين صابر، ترجمة: زكي نجيب محمود، دهر الجيل للنشر و التوزيع-بيروت، بالاتفاق مع المنظمة العربية للتربية و الثقافة والعلوم-تونس، الطبعة الأولى، 1988، ص31

<sup>2</sup> - بيتر فارب، بنو الإنسان، ص 51

<sup>3</sup> - وول دورانت، قصة الحضارة ( المجلد1، ج1)، ص 32.

<sup>4</sup> - وول ديورانت، قصة الحضارة ( المجلد1، ج1)، ص 33.

للزراعة على حسب قدرتهم على استغلالها، و بدأوا يفكرون بأنانيتهم، و هنا نشأت الملكية العقارية و انتقلت من الجماعة إلى الفرد، و لما انتقلت الأسرة من الطابع الأموسي ( Matriarcale ) إلى الطابع الأبوسي ( Patriarcale ) و امتلاك الأب لأرض بعد استصلاحها و الدفاع عنها، اعترفت الجماعة بحق الفرد لها دون غيره، ثم أخذت ملكية هذه الأرض تنتقل إلى أفراد الأسرة الواحدة عن طريق التوريث، و كان من هنا أن بدأ نظام الملكية الفردية، و ظهرت معه الطبقة بين من يملك القدرة على الإنتاج و من لا يملكها، و عزز ذلك التنافس بين المالكين أنفسهم و اتجاههم إلى استعباد غيرهم من الضعفاء، و كان ذلك طريق لظهور نظام الرق، و هو نظام يقوم على إعادة تنظيم العمل فيرغم الأقوياء اجتماعيا و اقتصاديا الضعفاء اقتصاديا واجتماعيا أيضا على العمل لصالحهم، كما انتقل هذا النظام إلى ضم اسرى الحروب إلى اعتبارهم رقيقا، كما أضيف إلى ذلك أيضا المجرمون و المدينون الذين لم يوفوا دينهم، ثم دفع ذلك الملاك إلى شن حروب على مجتمعات ضعيفة عمدا لجلب الرقيق، و مع تقدم نظام الرق عبر العصور أكسب المجتمعات البشرية تقاليد وعادات جديد بالنسبة لنشاط العمل إذ ينفر الناس من الأعمال الشاقة عندما يجدون من يرغمونه على القيام به مكانهم، و هذا النظام أيضا ساعد على قيام المدنية و ازدهار الحضارة، كون الرقيق يعمل على زيادة الثروة لدى المالكين و يوفر لهم الوقت للقيام بأعمال إبداعية و فكرية، و استمر هذا النظام حتى عد من طرف كثير من الأثرياء نظاما فطريا لا بد منه <sup>(1)</sup>.

هكذا إذن نشأ نظام الملكية الفردية و تطور عبر التاريخ و ما المراحل التاريخية اللاحقة لمرحلة استقرار المجتمع الزراعي و ظهور المدنية و نشوء الحضارة سوى تغيير لصورة العلاقة بين الطبقة المالكة و طبقة الرقيق، بينما جوهر هذه العلاقة لم يتغير، سواء سمي الرقيق رقيقا في المجتمعات الزراعية، أو عبدا أو قنا في المجتمعات الإقطاعية أو عاملا في المجتمعات الصناعية الحديثة، فهو دائما يشكل الطبقة الكادحة المستغلة بأبشع صور الاستغلال، مع أن علاقة الاستغلال هذه ليست علاقة طبيعية فطرية كما يدعي أصحاب الفكر الليبرالي و يبررونه على أنه كذلك، ثم أن هذه العلاقة التي تقوم على استغلال الإنسان لأخيه الإنسان نراها تتكرر بين

<sup>1</sup> - المرجع نفسه، ص 35 - 37.

الدول، وقد أخذت أبعادا سياسية وثقافية إيديولوجية واجتماعية واقتصادية وعسكرية. فتبرير سياسة الاستعمار الأوروبي لبلدان إفريقيا وأسيا وأمريكا اللاتينية في القرن التاسع عشر، كان من هذا المنظور الإيديولوجي، على أنه أمرا طبيعيا، ما دامت هناك شعوبا متخلفة بالفطرة وتحتاج لمن يحضرها.

هذا النظام الاقتصادي القائم على الملكية الفردية و حرية التصرف فيها هو الذي بلور العولمة الحالية في شكل نظام عالمي بعد أن كان نظاما محليا أو إقليميا، ومن أجل تحقيق ذلك كان يجب أن يعمل على تحقيق تقارب الشعوب وفق مبدأ الاعتماد المتبادل وتبادل المنتجات، ونتج عن ذلك امتزاج الثقافات والحضارات، ونشوء المجتمع الدولي ( او العالمي )، وقد تطورت وسائل وعوامل هذا التقارب والترابط بين الشعوب بتطور وسائل الحضارة التكنولوجية الحديثة بتطور العلوم التجريبية والتقنية، لاسيما وسائل الاتصال والنقل وازدهار التجارة، وكذلك تنظيم العلاقات الاقتصادية والسياسية بين الدول.

#### - الخاتمة

وهكذا يتبين لنا أن العولمة قد ارتبطت بكل ما حصل في العالم من تغيرات وتحولات عبر التاريخ، و ذات أبعاد عالمية، تستهدف الخروج من الحدود المحلية والإقليمية إلى العالمية، والعناصر الأساسية التي تحكم في صيرورة هذه التحولات هما مبدأ: " مبدأ الاندماج العالمي Le principe de l'intégration mondiale " للمجتمعات البشرية والدول في منظومة عالمية واحدة، وهو مبدأ يقوم أساسا على " مبدأ الاعتماد المتبادل Le principe de l'interdépendance " بين الدول في كل المجالات، وعلى جميع الأصعدة. وهذان المبدأان هما اللذان تحكمنا في نزوع البشر نحو الاجتماع، وتشكيل جماعات بشرية تقوم على تبادل العلاقات منذ فجر التاريخ البشري، وهذا أمر فطري طبيعي بالنظر إلى الإنسان باعتباره كائنا ضعيفا إزاء الطبيعة، ويواجه مصيرا مشتركا مع بني جنسه، ولهذا فاندماج الأفراد البشرية في مجتمع واحد يكون قد رافق الحياة الاجتماعية عبر كل مراحل تطور المجتمعات، ومنذ مرحلة الصيد والجمع، ثم مرحلة الاستقرار واكتشاف الزراعة وتدجين الحيوانات، إلى ظهور المدنية وبناء الحضارة والعولمة.

ولهذا فالعولمة ليست معطى الحاضر وإنما لها جذور تاريخية تمتد إلى عصور ما قبل التاريخ، فهي إذن نتاج حركية تاريخية جدلية، حدثت خلالها تغيرات في بني

المجتمعات البشرية، و اكتشاف أدوات جديدة للتكيف مع الواقع الراهن، هذه التغيرات كان لها تداعيات عالمية، حتى وإن كانت تحدث في إقليم محدد جغرافيا، لذلك فمهما تعددت أشكال هذا التقارب و التجاور بين شعوب العالم عبر التاريخ، فلم يكن ذلك وليد الحاضر بقدر ما كانت له جذور عريقة في التاريخ البشري، و ما المراحل التاريخية المتعاقبة من مرحلة الصيد و الجمع إلى مرحلة اكتشاف الزراعة والاستقرار، ثم مرحلة تأسيس الحضارة و الصناعة، سوى توسيع لمجالات هذا التقارب و جعله أكثر تنظيما، مع أن التاريخ هو الذي يصنع الأمم و يربط فيما بينها بعلاقات اقتصادية و اجتماعية، و ثقافية، و سياسية، فيحدث بذلك فيها اندماجا لشعوبها، بأن يخضعها لمختلف قنوات الاتصال، و أشكال الاعتماد المتبادل، ذلك هو جوهر العولمة الحالية.

### قائمة المراجع

- 1- أرنولد توينبي، تاريخ البشرية ( ج 1 )، ترجمة: نقولا زيادة، دار الأهلية للنشر و التوزيع، ط1 1981.
- 2- إميل دوركهايم، علم الاجتماع و الفلسفة، ترجمة: د/ حسين أنيس، مكتبة الأنجلومصرية، ط1 1966.
- 3- إيان تاتيرسول، العالم من البدايات حتى 4000 قبل الميلاد، ترجمة: د/ حازم نهار، هيئة أبو ظبي للثقافة و التراث " كلمة " - أبو ظبي، ط1 2011.
- 4- بيتر فارب، بنو الإنسان، ترجمة: زهير الكرمي، سلسلة علم المعرفة، العدد 67، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب الكويت، يوليو 1983.
- 5- سميث دنيس، الأجندة الخفية للعولمة، ترجمة: علي أمين علي، المركز القومي للترجمة - القاهرة، ط1 2011.
- 6- عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة ( ج 1 من كتاب العبر )، ضبط المتن: د/ خليل شحاتة، مراجعة: د/ سهيل زكار، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع ط 2000.
- 7- موسى سلامة، نظرية التطور و أصل الإنسان، مؤسسة "كلمات عربية" للطباعة و النشر و التوزيع - القاهرة، ط1 1957.
- 8- محمد أبو المحاسن عصفور، معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم ( من أقدم العصور إلى مجيء الإسكندر )، المطبعة المصرية، د. ط 1968.
- 9- يوليوس ليبس، أصل الأشياء ( بدايات الثقافة الإنسانية )، ترجمة: كامل اسماعيل، دار " المدى " للثقافة و النشر - دمشق، ط1 1988.

10- وول ديوانت، قصة الحضارة ( المجلد 1، ج 1)، ترجمة زكي نجيب محمود، دار " الجيل " للنشر والتوزيع - بيروت، بالاتفاق مع المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - تونس، ط 1 1968.  
- المجلات والموسوعات

- 1- موسوعة ويكيبيديا، ( بيبليوغرافيا: جين مارك غاسبار إيتارد )
  - 2- د/ عبد القادر خليفة، فاطمة سالي، مقال: دور المؤسسة التربوية في إدماج الفرد في المجتمع، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية العدد 15، جوان 2014 ورقلة
- الموقع الإلكتروني

( <https://dspace-ouargla.dz/jspui/bitstream/123456789/65641/s/1501pdf> )